فيلكس دارفور: من روّاد الحركة الوطنية

عبدالرحمن موسى أبكر

يقرن الكثيرون بدايات الأدب الافريقى عموما، والناطق بالفرنسية على وجه الخصوص ،بظهور أعمال روّاد مدرسة الزنوجة، وعلى رأسها أعمال الشاعر السنغالى ليوبولد سيدار سنغور فى أربعينات هذا القرن. وظنّنا أنّهم بذلك يمحون قرنا كاملا تميّز بالخصوبة والتفرّد والجرأة فى وقت كانت القارة ترزح إبّانه تحت نيرالعبودية والاستعمار.

والواقع أنّ لهذا الأدب جذور أبعد فى القرن التاسع عشر نمت من إسهامات عدد غير قليل من أدباء المستعمرات الفرنسية (Les indigenes francais) إبّان القرن التاسع عشر مثل ليوبولد بانيه ودافيد بوالا وبيير موسى وليوبولد ديوف وبول هول والمترجم الموريتانى أبو المقداد وفيليكس دارفور والذين تمكنوا، رغم صعوبة الطباعة آنذاك ،أن يخلّفوا آثارا مهمة.

على أنّنا سنفرد هذه المذكرة للتعريف بآخر أديب فى هذا العقد، أى فيليكس دارفور.

يرجع أصل موطن فيليكس الى إقليم دارفور بالسودان وقد أخذ رقيقا وهجّر عنوة الى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر، ولمّا أعتقه الجنرال أردوان - المتحدّر من أصل كاريبى وأحد أشهر قوّاد نابليون - أطلق عليه اسم الاقليم الذى ترجع اليه أصوله، وذلك فى غياب عائلة يقف عندها نسبه.

كتب لفيليكس أن يسافر الى فرنسا بمعية هذا الجنرال ويقضى فيها ردحا من حياته حيث تلقى دراسات مهنية أهّلته لأن يصبح فنّيا فى السفن والبواخر فضلا عن تلقيه دراسات أدبية اتضح جليا فيما بعد أنّه بلغ فيها شأوا عظيما وذلك بالنظر الى قدراته وملكاته فى الكتابة، وبالذات فى أدب المقال. وفضلا عن هذا، فإنّ هنالك كثيرا من القرائن التى تجعلنا نجزم بأنّه تلقى تأهيلا وتدريبا ممتازا على العمل الصحفى وعلى حرفة الطباعة.

شاءت الأقدار أن تنشأ فى هذه الفترة جمهورية . هايتى (عام ١٨٠٤م) بعد ثورة العبيد الشهيرة فى عام ١٨٠١، فعزم فيليكس أن

يسخر نفسه لخدمة هذه الجمهورية الشابّة وأهلها من السود. وظنّنا أنّ هذه الرغبة الجامحة مردّها الى أنّ فيليكس نفسه كان رقيقا ثم ذاق طعم الحرية وأنعم عليه بالمعرفة فهيأته هذه العوامل مجتمعة للرحيل من فرنسا نحو هايتى خدمة لأهداف ومثل عليا اعتملت فى نفسه.

ولعلّه من الأهمية بمكان أن لا نغفل عن ذكر المناخ الفكرى والثقافى الذى كانت تعيشه فرنسا فى تلك الحقبة، أى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وأثر ذلك على قرار فيليكس.(١)

لقد شهدت فرنسا فى هذه الفترة عدّة تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية على اثر اندلاع الثورة الفرنسية أدّت الى إنهاء السيطرة الملكية على كثير من مجالات الحياة العامّة وبالذات مجال الصحافة الذى يعنينا أكثر من غيره فى هذا البحث لأنّ فيليكس امتهنها فيما بعد. ومن المعلوم، أنّ احدى النتائج المباشرة للثورة الفرنسية أنّها سمحت لكلّ مواطن بحق النشر محطمة بذلك واحدة من أهم مظاهر السلطة الملكية.

وبالرغم من أنّ نابليون ألزم الناشرين فى عام ١٨١٠ بالحصول على تصريح مسبق قبل القيام بنشر أعمالهم إلاّ أنّ الثورة السياسية والصناعية وتطوّر وانتشار التعليم فى السنوات التالية خففت من أثر ذلك القانون، حيث لم تطل الرقابة خلال القرن الثامن عشر كلّه إلاّ عملا أدبيا واحدا وهو (العقاب) Chatiments لفكتور هوغو فى عام ١٨٥٣.

كان لهذا الجو صداه فى نفس فيليكس فغادر فرنسا على السفينة (L'Eueille) التى أبحرت من ميناء الهافر قاصدة بورت - دى - برانس (عاصمة هايتى) فى عام ١٨١٨،حيث صحبته فى رحلته هذه الآنسة أبداليا والتى قدّمت فى هايتى على أنّها مدام دارفور.

وفى هايتى قام رئيسها بواير (Boyer) باستقبال الزوجين على أفضل وجه وأمر بتوظيف فيليكس فى مجال العمل البحرى. وتدل قرائن الأحوال على أنّ فيليكس قد تلقى دراسات أدبية ممتازة ولربما عمل أيضا فى احدى الصحف فى فرنسا إذ سرعان ما شرع فى إنشاء جريدة

أسماها "الرّائد الهايتى" أو "الوطنى المخلص" (L'eclaireur haitien ou le parfait patriote) والتى غيّر اسمها بعد أشهر الى "المنذر الهايتى" (L'avertisseur haitien) وكانت صحيفة تجارية ذات صبغة سياسية وتصدر ثلاث مرّات فى الشهر. وأغلب الظن أنّ فيليكس كان يقوم بصياغة كافة المقالات بنفسه بينما كانت المطبعة الوطنية فى هايتى تقوم بأمور الطباعة تحت إمرة عديد من الأشخاص من بينهم المؤرخ بوبران أردوان.

على كلّ يجدر بنا أن نشير الى أنّ فيليكس وجد صعوبة بالغة فى التعيّش من الصحافة، لذا كان يعمل تارة مهندسا وتارة محاميا حتى يكسب قوت يومه، بعد أن حصل على الجنسية الهايتية طبقا للمادة ٤٤ من دستور هايتى والتى تنص على أنّه من حق كل افريقى الحصول على الجنسية بعد الاقامة لمدة عام فى الجزيرة.

على كلّ، غلب طابع الهجوم على كتابات فيليكس وبالذات ضد البيض الذين كانوا يشنون حملات ضارية فى الخارج على جمهورية هايتى السوداء والتى لم يمض على قيامها ردح طويل من الزمن:

"إنّ أعداءنا ينشطون ويسعون للاساءة الينا متخذين من ذلك كل وسيلة ممكنة ويطلقون علينا أقذع تعابير السخرية ليحقرونا، لذا يتوجّب علينا مقارعتهم بنفس السلاح". (٢)

على أنّه سرعان ما بدأ فيليكس نفسه يضيق من ممارسات حكومة بواير لنشاطها وعدم اهتمامها بالفلّاحين وسكان الريف الذين يشكلون الغالبية العظمى من سكان الجزيرة.

قضى فيليكس أربعة أعوام يحارب وحده وبضراوة شديدة فى سبيل المثل التى آمن بها. ولمّا انقضى أجل المجلس النيابى فى عام ١٨٢٢، قامت الحكومة بإجراء انتخابات عامّة لتجديده فى يوليو/ تموز ١٨٢٢، وأسفرت النتيجة عن فوز المهجّنين (Les mulatres) بكافة مقاعد المجلس النيابى. ولمّا اكتملت اجراءات انعقاد المجلس فى أغسطس / آب عام ١٨٢٢ قام فيليكس بتقديم مذكرة للمجلس يتهم فيها الحكومة بتجاهل أحوال سكان الريف من السود وعدم الاهتمام بترقية ظروف معيشتهم. أثارت هذه المذكرة حفيظة النوّاب الملوّنين عليه فتم تشكيل محكمة عسكرية على عجل حكمت على فيليكس بالاعدام فى ١٨٢٢/٨/٢١

وتمّ تنفيذ الحكم عليه رميا بالرصاص أمام فرقة عسكرية فى ٢ سبتمبر/ أيلول ١٨٢٢.

ولقد تأمّلت مجمل كتابات فيليكس دارفور فلم أجد أى كتاب مطبوع باسمه ولكن المقالات الصحفية التى قام بكتابتها تمثل سفرا مهمّا ينبغى جمعه وتحليله وإيداعه مكتبة جامعة الخرطوم وسائر مكتباتنا الوطنية.

إنّ إيمان فيليكس بقضية الرجل الأسود وسائر المضطهدين ودفاعه المستميت عنهم مردّه حتما الى الظروف التى عاشها فى مقتبل أيامه حيث أخذ رقيقا من دارفور الى مصر ولكن ذلك يرجع أيضا الى المثل التى تشبّع بها العصر الذى عاش فيه قبل أن يتشبّع هو بها.

وبفضل تلك الاستماتة وذلك الدفاع عن السود وقضاياهم غدا فيليكس فى نظر الكثيرين رائدا من روّاد حركة الزنوجة وأول شهيد من شهدائها.

الهوامش

(١) لقد تشبّعت فرنسا فى القرن الثامن عشر بأفكار الثورة ومثلها فظهرت كتابات كثير من المفكرين بشأن المساواة والحقوق المدنية ونخص بالذكر جان جاك روسو.

(٢) Jean Price Mavs, La Republique d'Haiti (P. U. F. 1976) p. 181.

ولكتابة هذه المذكرة نظرت اجمالا فى الكتب التالية:-

Beaubrun Ardouin, Etude Sur L'histoire d'Haiti. (Academie des Sciences d'outre- Mer, 1959).

Cornevin Robert, Litterature d'Afrique Noire de Langue Francaise (P. U. F. 1976).

Jean Price Mars, La Republique d'Haiti, (P. U. F. 1976).